

الفنان ماجد عباس ... مشغل الزبير البكر

مثلما كانت إحدى مهام الفن تتمثل في إرساء قواعد الربط الروحي بين المدركات الحسية وبين نتائج قد لا تكون قصدية في بناء وتفسير تلك المدركات ، فهو بالضرورة يمثل لغة مشتركة يمكن استطلاعها والاستشراق بها عبر أواصر جدلية تحدد الواقع بوصفه ظواهر مدركة وما تؤول إليه في إعادة بناء وتنظيم تلك الظواهر ، ويخطئ من يتصور أنها عملية يسيرة لا تمر بمراحل غيبية أو مقننة ، وهذا فرض بديهي تجسد في الفنون العراقية القديمة بتمرحلاتها على وفق المرجعيات المتعددة كالدين والسلطة والسحر لينبري فيها المحيط في الشكل والمادة المعطاة إلى رموز ترتكز إلى تلك المرجعيات ، فتمثل برمتها انساقا تتجاوز حدود الواقع لتؤول إلى تراكيب ذات دلالات ، وإنها تتألف فكريا مع دلالاتها في حدود التعبير من خلال تفعيل تلك الدلالات في استشعار المتلقي بمكان ذهنية مثقلة بالأشكال والرموز المستمدة من الواقع يجسده المنجز الفني لاسيما إن النظم التعبدية والطقوس تدعم تلك الأشكال بل تقودها إلى مرجعياتها الفكرية للربط بين الذات والمحيط كاتجاهين محسوسين وبين ماهو غيبي يفيض منه الشكل في الرموز من اختزالية قيمه المحسوسة (المادية) وجنوحها إلى عالم الماورائيات ، وهو انتماء طبيعي وحيوي بين العالمين المعرفي والتأويل، من هنا يكمن هاجس الفن الروحي بنبذه التقليد توخيا قراءة الطبيعة ، إذ يتولد في الفن عامل المشاكسة التي تفرضها علاقة الفنان بما يحيطه فتكشف عن انفعالات وتحديات داخلية في الذات واتصالها مع المحيط وظروفه بكل نوازهه وتتاقضاته فيتمثل بذلك الخطاب الفني على أسس استنهاض وتعزيز القيم الجمالية ، من جانب آخر يفترض حصولها في تحليل أي نتاج فني لاسيما التشكيلي منها ما يتصل بالوعي وارتكاز معطياته في التلقي بما يمثله المضمون من استتطاق حقيقي للواقع ، كما تنفرد منها انساقا ووشائجا لتحليل المضمون ضمن دائرة المعرفة التي يغتني بها التحليل ضمن سياقات منطقية معمول بها ، أسوق هذا لغاية استذكر فيها قيم الفنون المترسخة في الذات الإنسانية العراقية علني أتمكن من العوم في دهاليز المجسمات والمشخصات الطينية والخزفية التي يحتويها المشغل البكر للفنان ماجد عباس (واسط ١٩٤٤) في مدينة الزبير التي تبعد عن مركز مدينة البصرة بحدود ١٥ كم . والفنان جهد في تشييد هذا الصرح الفني المغمور والبعيد عن الأضواء رغم انه أنجب العديد من الانجازات الفنية منذ أكثر من عقدين من الزمن .

وحال دخول المشغل لامناص تجد نفسك أمام مشغولات فنان يمتلك الخبرة عبر تجاربه المتعددة ، فهو الحرفي الفنان الذي يزاول الفن بتنوعاته في التشكيل وبعض الفنون الحرفية التطبيقية ، بيد إنني آثرت أن اطرح رؤيتي عنه بصفته خزافا .

في احد بحوثي الأكاديمية المنشورة في مجلة فنون البصرة التي تصدرها كلية الفنون الجميلة في جامعة البصرة (الفن بين مفهومي التشكيل والحرفة الشعبية) ذكرت أن هناك توا شجا كبيرا بين الفن التشكيلي والحرفة الشعبية فتوصلت إلى مفهومين هما (الفن في الحرفة) و (الحرفية في الفن) البون بينهما يكمن في جاهزية النتائج ، فالحرفي تسبق نتائج منجزه آلية التنفيذ بينما يتعذر استقراء هذه النتائج في العمل التشكيلي الإبداعي ، واعتقد أن ما بينهما يظهر الحرفي المبدع عندما يتجاوز بمنجزه الأول وقد يتجاوز برؤيته الثاني ، وفي هذا المجال أجد فيه حيزا مهما لـ ماجد عباس .

وعلى ضوء الفلسفة التجريبية لـ ديوي أن الفنان وعبر تجاربه الذاتية المحضة لابد من وصوله حالة الإبداع والخبرة من خلال تطويع المادة الخام وفق مايرتئي عله يجد ضالته في استجابة المتلقي على أساس أن المادة وسيلة الاتصال بين الفنان والمتلقي ، فبقي ماجد عباس أمينا بشراكته مع المتلقي عبر تهذيبه المادة الخام (الطين) ليلقيها عرضة للتلقي ، ولذلك تعد أعماله مداليل على خبرات متزايدة لتجارب متراكمة ومتنامية اجترح فيها الفنان لنفسه خطا شفيفا من علائق المنجز البصري العراقي وأسس أصالته عندما استنهض الوحدات البصرية العراقية القديمة في سومر وبابل وآشور وموظفا القيمة الهندسية للحرف العربي الكوفي لضرورة تقتضيها القيمة الجمالية والتصميمية لجدارياته .

وأراني وسطا إذ أرى أن الفنان اشتغل في منطقة تخطت الحرفة بعيدا حيال الأكاديمية إلى فترة متأخرة إذا ما علمنا انه زاول التدريس في معهد الفنون الجميلة ثم مشرفا على دورات المعلمين والمدرسين في معهد الإعداد والتدريب ، ولشغفه بتعلم الفنون التشكيلية أكاديميا أنهى دراسة البكالوريوس في الكلية المفتوحة فأصبح توجهه ورؤيته الفنية أكثر نضجا ودراية وربما أكثر إحساسا .

ماجد عباس مغرم بالمنظومة الزخرفية الإسلامية وقيمتها الجمالية لاسيما عنصري التكرار والتناظر وإمكانية إلغاء الفراغ بملء معظم المساحات بهذه القيم ، وقد انعكست وتداخلت في تصاميمه الطينية وجدارياته المثبتة في ساحات البصرة .

وإذا كنا نفخر بالنحات العرقي الكبير الراحل منعم فرات بوصفه الامتداد الحقيقي والوريث الشرعي للفنان العراقي القديم لابد لنا أن نضع ماجد عباس في مرتبة لاتقل شأنًا من سلفه الراحل ، فهو الامتداد الأمين له مع الفارق أن ماجد عباس يسكن مدينة يكاد الطين ينعدم فيها . الزبير المدينة المحاذية لصحراء العراق الواسعة ، ومع ذلك فقد اغرم الفنان بالمادة الطينية بطريقة تفوق مجاليه فكان ثرا وغزيرا في عطائه الفني وكأنه تيقن أن الطين مادة تبعث الروح والحياة في المجتمع وتعطي للتاريخ قيمة التدوين منذ المعارض المكشوفة للفنان القديم .

هذا المشغل المليء بالفخاريات والمزججات المرتبة كأنها رتبت متحفيا للتلقي ، لم يكن بعيدا عن احتضان بعض المنجزات الفنية في الرسم والنحت على الحجر والخشب كنوع من التجارب المكمل والمؤازرة لرؤية الفنان الجمالية للفن عامة .

الفنان ماجد عباس بقي ولما يزل أمينا لفنه فرفد الحركة التشكيلية بمشاركاته المستمرة فضلا عن ذلك انه رقد الحركة التشكيلية باثنين من أبنائه احدهما تدريسي في كلية الفنون الجميلة قسم النحت والأخرى مدرسة لمادة الرسم في التربية .